م. د. ميثاق حسن عطار
اللغة العربية / أدب حديث
٠٧٨٢٨٧٤٠٢٤٩
methaq.attar@qu.edu.iq

أ.م.د. رواء نعاس محمد
اللغة العربية / آدب حديث
٠٧٨٠٥٥٠٨٨٥٦
rawaa.mohammad@qu.eduoiq

تقنيات الحجاج في مناظرات الإمام محمد الباقر(عليه السلام)

يرتكز الحجاج على دراسة الاسلوب الذي يعتمده المتكلم للتأثير في المتلقي وتغيير معتقداته ، بغية إقناعه بالموضوع الذي يريد إيصاليه إليه ، عبر توظيف التقنيات اللغوية والتواصلية . ولما كانت المناظرة تقوم على المجادلة التي تتطلب من المناظر رصف الحجج التي تمكنه من استماله عواطف المتلقي والتأثير فيه ، ليتسنى له إقناعه عبر توظيف بنيات فكرية ولغوية لتحقيق مقاصده ، فهي خطاب حجاجي بامتياز .

وتأسيساً على ذلك ، فقد سعت الدراسة للكشف عن الاستراتيجيات الحجاجية التي اعتمدها الامام محمد الباقر(عليه السلام) في مناظراته لإقناع الطرف الآخر وتغيير موقفه ، أو حمله على الإذعان ، كاشفاً من خلالها بطلان دعواه ، عبر جملة من الحجج البلاغية والمنطقية التي تهدف إلى التوجيه والتنبيه والتبليغ والإصلاح .

Techniques of pilgrims in the debates of Imam Muhammad al-Baqir (peace be upon him)

Abstract

Pilgrims are based on studying the way in which the speaker influences the recipient and changes his beliefs in order to convince him of the subject he wants to reach by using linguistic and communicative techniques. Since the debate is based on the argument that requires the viewer to pave the arguments that enable him to absorb the emotions of the recipient and influence in order to convince him through the use of intellectual and linguistic structures to achieve his purposes is a speech Hajjaji excellence.

Based on this, the researcher sought in this study to uncover the pilgrim strategies adopted by Imam Muhammad al-Baqir (peace be upon him) in his debates to convince the other party and change his position or to induce him to submit to it through a series of rhetorical and rational arguments that aim at Guidance, notification and reporting.

المقدمة

يرتكز الحجاج على الاسلوب الذي يعتمده المتكلم في خطابه للتأثير في المتلقي وإقناعه بإطروحة معينة ، من خلال توظيف التقنيات اللغوية والتواصلية لكسب ثقته وتأييده ، بما يحقق تسليمه واستعداده للفعل أو تركه أو الإذعان للقول الحجاجي . ولما كانت المناظرة تقوم على المجادلة التي تتطلب من المناظر بسط الحجج ليتمكن من استمالة عواطف المتلقي لإقناعه والتأثير فيه ، عبر توظيف بنيات فكرية ولغوية مخصوصة ، لذلك كانت من أكثر الأجناس الأدبية حضوراً وتأثيراً في الثقافة العربية الاسلامية .

وقد شكلت مناظرات الإمام الباقر(عليه السلام) خطاباً تبليغياً مؤسّساً ، وفقاً لمقدمات خطابية تواصلية تخاطب الآخر وتحاوره ، لتقدم في تواصلها المفتوح والمتجدد على شؤون الإنسان نصوص لغوية ثرية ، تهدف إلى توجيه الأفراد ومحاورتهم لتصحيح مسارات التفكير الخاطئة ، أو إيضاح بعض الشبهات التي تخص بعض الاحكام الشرعية ، استناداً إلى استراتيجيات حجاجية تنوعت بتنوع مخاطبيه ، فحاور ووعظ حيناً ، وأوصى وجادل حيناً ، وناظر وحاجّ ، فكان في كل ما قدم النبع المحمدي الخالص والسبيل القويم.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن تقسم هذه الدراسة على قسمين الأول نظري ، تناولت فيه مفهوم الحجاج وتطوره ، أما القسم الثاني فكان دراسة تطبيقية لنظرية الحجاج في بعض مناظرات الإمام الباقر(عليه السلام) ، للكشف عن التقنيات الحجاجية التي اعتمدها في بناء مناظراته على مستوى الشكل والمضمون ، لينتهي البحث بخاتمة بأهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

المحور الأول

(الحجاج) رؤية مفهومية

يعرف الحجاج بأنه خطاب من جنس خاص ، يبنى على فريضة محددة ، يعمد فيها المتكلم إلى عرض دعواه مدعومة بسلسلة من التبريرات والتعليلات المترابطة ترابطاً منطقياً ، هادفاً من وراءها إقناع المخاطب بصدق دعواه والتأثير في موقفه تجاه تلك المسألة[1] .

فالحجاج إذن خطاب إقناعي يسعى إلى إحداث تأثير في معتقدات المتلقي وسلوكه ، لحمله على تبني موقف ما أو القيام بعمل ما، من خلال توظيف تقنيات ووسائل لغوية وتواصلية ، تضمن تحقيق الفهم والافهام واستمالة العقول والقلوب في الوقت ذاته .

ولمفهوم الحجاج جذور عميقة في التاريخ الإنساني ، ولعل أول ظهوره كان في البلاغة اليونانية القديمة عند (سقراط ، والسفسطائيون ، وإفلاطون ، وأرسطو) فقد عرف لديهم بصورة المنهج الجدلي الذي اتخذوه سبيلاً لبناء المعرفة والوصول إلى الحقيقة ، فكان الحجاج وسيلتهم لإقناع المتلقي والتأثير فيه ، ولعل طروحات ارسطو كانت أنضجها ، فقد أسهب في تفصيل ذلك حين عدّ الخطابة الميدان الأول للجدل / الحجاج ، بل هي الجدل بعينه فقال " يمكن أن نحد الخطابة بأنها الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان " [٢] . وقد كانت تلك الإرهاصات ولاسيما الحجاج الارسطوي الركيزة الرئيسة التي استند إليها الباحثون المعاصرون في الغرب في تعريفهم للحجاج .

وفي الثقافة العربية الإسلامية كان الحجاج وسيلة للذود عن العقيدة ورد الطاعنين بها ، ولعل المناظرات والسجالات الفكرية التي دارت بين الفرق الاسلامية منذ القرن الثاني الهجري كانت الجذوة الأولى له ، ثم تأصل مفهومه على يد العلماء المسلمين فلا تكاد تخلو كتب التراث العربي الاسلامي من تداوله تحت مسميات مختلفة كـ الاحتجاج ، والجدل، والجدال، والمجادلة ، والمناظرة ، والبرهان . وهو ما نجده في الكثير من المؤلفات ولاسيما في علوم القرآن ، والكتب التي وضعت في فن المناظرة ككتاب (المنهاج في ترتيب الحجاج) لأبي الوليد الباجي (ت٤٠٤هـ)[٣] ، و(علم الجذل في علم الجدل) لـ نجم الدين الطوفي[٤] ، كما استخدم ابن خلدون الجدل بمعنى الحجاج في معرض حديثه عن فن المناظرة في مقدمته [٥] .

واليوم يمثل الحجاج واحداً من أهم مباحث التحليل التداولي في الدرس اللغوي الحديث ، فقد أسهم علماء اللغة المحدثين في إرساء مفهومه ضمن المباحث اللغوية والبلاغية الحديثة منذ أواخر خمسينيات القرن المنصرم ، إذ انبثقت نظرية الحجاج في اللغة من رحم نظرية أفعال الكلام التي أسس لها الفيلسوف الإنجليزي (أوستن) ، وهو ما فتح الباب واسعاً أمام سلسلة من الدراسات فتحت آفاقاً جديدة للدرس اللساني بعد أن سادت اللسانيات البنيوية الشكلية لفترة طويلة ، فكان الحجاج مدخلاً مهماً من مداخل مقاربة النصوص ذات الصفة الإقناعية . وهو ما دفع الباحثون إلى إدراج الحجاج ضمن علوم الاتصال السلوكي أو الموقف الخارجي الذي يهتم بكل ما يتعلق بطريقة إيصال الرسائل وفهم دلالاتها الاجتماعية ضمن السياقات التي ترد فيها [٦] .

وقد تعددت تعريفات الحجاج وتنوعت بحسب المنظورات التي انطلق منها الباحثين ، ويُعدّ (بيرلمان) و(تيتيكاه) أول من عرف الحجاج بأنه " درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من إطروحات أو أن تزيد عن درجة ذلك التسليم "[٧] .

و(بيرلمان) هو أول من أطلق مصطلح (البلاغة الجديدة) على الحجاج عام ١٩٥٨ ، مؤكداً على أن الحجاج سلسلة من الحجج التي تنتهي بصورة كلية إلى تأكيد النتيجة ذاتها ، ولعله أراد أن الحجاج اسلوب في تنظيم وعرض الحجج وبنائها وتوجيها نحو هدف محدد يكون الإقناع والتأثير غايته ، وبذلك تكون الحجة في سياق هذا الغرض دليل على الصحة أو الدحض [٨].

أما (مايير) الذي انطلق في تعريفه للحجاج من وجهة نظر فلسفية فقد كانت له رؤية مغايرة ، يرى فيها الحجاج دراسة لطبيعة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وباطنه ، قاصداً بظاهر الكلام الجواب أما باطنه فهو السؤال الذي يستنتجه المتلقي ضمناً من الجواب ، فالحجاج هو إثارة الاسئلة [٩] .

في حين يتسع مفهوم الحجاج لدى (ديكررو) ليشمل جوهر اللغة بصرف النظر عن استعمالاتها ، إنه إنجاز لعمليتين : التصريح بالحجة والاستنتاج سواء أكانت النتيجة ظاهرة أم مضمرة [١٠] . وقد أقام (ديكرو) نظريته تلك على ثلاثة مرتكزات هي العوامل اللغوية (يقيناً، أحياناً ، تقريباً،...) ، والروابط الحجاجية (بل ، لكن ، لأن ، كي ،...) ، والسلالم الحجاجية ويراد بها تعدد الحجج مع تدرجها في التأثير والقوة [١١] .

يضعنا هذا التعدد في مقاربات الحجاج وتراكماتها أمام أمرين : الأول صعوبة الإلمام بتفاصيل كل تلك المقاربات التي أنضجت نظرية الحجاج ، والثاني إننا إزاء نظرية واسعة لا تقف مصادرها عند حدود علوم اللغة والبلاغة فحسب ، بل تمتد لتشمل علم النفس والاجتماع والمنطق ، فضلا عن الوسائل التواصلية غير الكلامية كتعابير الوجه وحركات الجسد ، وهو ما يقودنا إلى الإقرار بتعدد أنواع الخطاب الحجاجي وتنوعه ليشمل كل صور الممارسات الخطابية وجميع أنماط الخطاب في حياتنا اليومية .

وتعد المناظرة إحدى تمثلات الخطاب الحجاجي ، فهي صورة من صور الخطاب الحجاجي يسعى فيه كل طرف إلى التأثير في الآخر من خلال " تبادل الكلام والآراء المتعارضة في موضوع ما يثير الجدل "[١٢] ، عبر توظيف بنيات فكرية ولغوية . ولذلك يمكن إدراجها ضمن فضاءات التعبير عن الذات والحوار مع الآخر ، لأنها تكريس لثقافة الإختلاف بما تمنحه من حيز للتباري بالآراء والأفكار.

وقد تصدرت المناظرة قائمة الخطابات التي وظفت لغرض الإقناع في الثقافة العربية الإسلامية ، فكانت وسيلة من الوسائل التي انتهجها أهل البيت (عليهم السلام) في نشر المعارف الإلهية والعقائدية بين الناس ، وقد شكلت مناظرات الإمام الباقر (عليه السلام) خطاباً تبليغياً مؤسّساً وفقاً لمقدمات خطابية تواصلية تخاطب الآخر وتحاوره ، فقدمت في تواصلها المفتوح والمتجدد على شؤون الإنسان نصوصاً لغوية ثرية ، اتخذت الإقناع سبيلاً لدعوة الناس وإرشادهم عبر خطاباً حجاجياً يخاطب العقل والقلب في الوقت ذاته.

المحور الثاني

التقنيات الحجاجية في مناظرات الإمام الباقر (عليه السلام)

أسس الإمام الباقر (عليه السلام) خطابه الحجاجي في مناظرته على مجموعة من التقنيات الحجاجية منها :-

١ – الإحتجاج بالنص القرآني

يُعدّ الاستشهاد آلية حجاجية يأتي بها المحاجّ لتعزيز موقفه إزاء رأي الآخر ، وتقوية درجة التصديق لدى المتلقي ، من خلال تقديم حالات خاصة توضح القول العام وتقوي حضوره في الذهن [١٣]. وعلى الرغم من أهمية هذه الوظيفة ومركزيتها إلاّ إن للشاهد وظائف أخرى تتعدد بتعدد غايات المتكلم وتنوع مقاصده [١٤] .

والإستشهاد بالنصوص القرآنية من أهم آليات الحجاج وأكثرها شيوعاً في المدونة العربية ، لكونه من أكثر أنساق الخطاب فاعلية في الثقافة العربية ، فالشاهد القرآني ينماز بسلطة حجاجية منحتها له قداسة النص ، وهو ما يجعل حضوره مركزياً في النصوص الحجاجية عبر توظيفه ليكون فاصلاً بين الحق والباطل ، فيتحقق به الإقناع والاقتناع [١٥] .

ويمثل الاستشهاد بالنصوص القرآنية في مناظرات الإمام (عليه السلام) معلماً واضحاً للعملية الحجاجية حضوراً وتواتراً ، لكونه جزء من تكوينه العقائدي أولاً ، ولوعيه (عليه السلام) بمكانة النص القرآني وما له من تأثير في المتلقي . ومن صوره المناظرة التي دارت بين هشام بن عبد الملك والإمام الباقر(عليه السلام) . إذ تذكر المصادر أن هشام بن عبد الملك كان في موسم الحج فنظر إلى اجتماع الناس حول الإمام وحضور العلماء عنده فثقل عليه ذلك ، فأرسل إليه رجلاً من أصحابه وقال له : قل له أن امير المؤمنين يقول لك : ما الذي يأكله الناس ويشربه إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة ؟ فقال الإمام (عليه السلام) يحشر الناس على مثل قرص البر النقي ، فيها أنهار وأشجار يأكلون ويشربون منها حتى يفرغ من الحساب . فقال هشام للرجل : اذهب إليه فقل له : ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ ؟ فأجابه الإمام (عليه السلام) : هم في النار أشغل ، ولم يشتغلوا عن أن قالوا { ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله }[١٦] ، فسكت هشام ولم يحصل له ما أراد من إحراج الإمام (عليه السلام) بهذا السؤال [١٧].

فقد استثمر الإمام (عليه السلام) الخطاب القرآني ممثلاً بالآية الكريمة لإقامة الدليل على صحة رأيه ووجاهة تأويله ، فالإحتجاج بالآية الكريمة كان فاصلاً بين الحق /جواب الإمام وبين الباطل / مزاعم هشام بن عبد الملك ، والإحتجاج بها فصل القول وأنهى الكلام .

ومنها أيضاً ما أورده الطبرسي عن أبي الجارود قوله: قال الإمام الباقر(عليه السلام) إذا أخبرتكم بشيء فسألوني من كتاب الله ، ثم قال في بعض حديثه إن رسول الله (ص) قد نهى عن القيل والقال ، وفساد المال ، وكثرة السؤال . فقالوا : أين هذا من كتاب الله يا بن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : فأجاب قوله تعالى { لا خير في كثير من نجواهم إلاّ من أمر بصدقةٍ أو معروف أو إصلاح بين الناس }[١٨] ، وقال { ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً}[١٩] ، وقال تعالى { لا تسألوا عن أشياء إن تبدوا لكم تسؤكم }[٢٠] . فوعي الإمام (عليه السلام) بمكانة النص القرآني وما له من تأثير على متلقيه دفعه إلى الإتيان به شاهدا يثبت به تخريجه ويدعم به رؤيته ، وهو ما خلق حالة من الانسجام بين الإمام محاجاً ومدافعاً عن رؤاه ومقاصده وبين الجمهور متلقياً لخطابه ومنفعلاً به ، فشكلت الشواهد القرآنية دعامة مركزية في خطابه عوّل عليها بوصفها حجة يحتج بها على المخاطب في سبيل الإقناع والتأثير ، وهو ما منح المحاجّ قوة أكتسبها من تلك الحقائق .

٢- الحجاج بالاستدراج

وهو جعل المناظر خصمه يوافقه في مسألة تستلزم مسألة تبطل دعواه [٢١] ، وقد وظف الإمام الباقر(عليه السلام) هذا النوع من الحجاج في مناظرته لعبد الله بن نافع بن الأزرق الخارجي . وتذكر المصادر أن عبد الله هذا كان يقول : لو إنّي عرفت أن بين قطريها أحد تبلغني إليه المطايا يخصمني أن علياً قتل أهل النهروان وهو لهم غير ظالم لمضيت إليه ، فقيل له : ولا ولده ؟ فقال : أفي ولده عالم ؟ فقيل له : هذا أول جهلك ، وهل يخلون من عالم في كل عصر . فقال من عالمهم اليوم ؟ فقالوا له : أبو جعفر الباقر (عليه السلام) . فرحل إليه في جمع من أصحابه حتى أتى المدينة فاستأذن بالدخول عليه فأذن له بعد أن أمر الإمام بجمع أبناء المهاجرين والأنصار ، فخرج عليهم خطيباً وبعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله (صلى الله عليه وسلم) طلب منهم أن يذكروا مناقب الإمام علي (عليه السلام)، فقام جمع منهم وسردوا بعض مناقبه ، فقال عبد الله بن الأزرق : أنا أروى لهذه المناقب منهم وإنما أحدث علي الكفر بعد تحكيم الحكمين : حتى إذا انتهوا إلى حديث خيبر : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله

ورسوله لا يرجع حتى يفتح الله على يديه ، فقال الإمام : ما تقول في هذا الحديث ؟ قال : هو حق لا شك فيه ، ولكنه أحدث الكفر بعده [٢٢] .

لقد ارتئى الإمام (عليه السلام) الاستناد إلى سلطة الجمهور من أبناء المهاجرين والأنصار ، واستثمر الخطاب الديني ممثلاً بالأحاديث النبوية الشريفة التي صدرت بحق الإمام علي (عليه السلام) تقنية حجاجية في مناظرة ابن الأزرق ، ليُدحض أُطروحته ، ويلزمه الحجة ، علّه يقتلع من نفسه الحقد على الإمام ويعيده إلى جاده الصواب ، وبعد أن لمس إصرارهُ على موقفه عمد الإمام إلى وضعه في مأزق حجاجي من خلال ربط هذه الحجة –حديث خيبر– باستفهام يلزمه أحد خيارين كل منهما ليس في صالحه حين قال له : " أخبرني عن الله أحب علي يوم أحبه وهو يعلم أنه يقتل أهل النهروان أم لم يعلم ؟ فأن قلت لا كفرت ، فقال قد علم "[٢٣] ، وبعد أن أجاب عن هذا السؤال قاده الإمام إلى الإقرار ببطلان دعواه من خلال سؤال آخر ، فقال له : " فأحبه الله على أن يعمل بطاعته أو أن يعمل بمعصيته ؟ فأجابه : على أن يعمل بطاعته ، فقال له أبو جعفر (عليه السلام) قُمّ مخصوماً"[٢٤] .

لقد وظف الإمام (عليه السلام) هذه الاستراتيجية الحجاجية حين وجد إصرار عبد الله بن الأزرق على الضلالة ، على الرغم من كل ما ذكر من أدلة وبراهين ، وهو ما أخضعه وبكته ورسخ اليقين بالأدلة المعروضة .

٣– الحجاج بالاستفهام

أجمع الباحثون على الوظيفة الحجاجية التي يؤديها الاستفهام بما يحمله من افتراضات ضمنية تؤهله لحمل طاقة حجاجية عالية ، وهو ما حمل (أوستن وسيرل) إلى جعله ضمن الأفعال الإنجازية ، ودفع (ديكرو وانسكومبر) إلى القول بأن غاية الاستفهام تتمثل في الإجابة المحددة التي يمليها المقتضى الناشئ عنه والتي يفرضها المتكلم على المخاطب به ، فيوجه الحوار الوجه التي يريدها ، وبذلك يكون الاستفهام وسيلة لإجبار المخاطب على الإجابة وفقاً لما يرسمه له البعد الاستفهامي الاقتضائي [٢٥] .

وقد كانت تقنية الاستفهام واحدة من التقنيات الحجاجية التي وظفها الإمام الباقر (عليه السلام) في مناظراته ، لما لها من أدوار حجاجية لا يستهان بها ، ينتج عنها فعل حجاجي لدى المتلقي يحقق من خلالها الخطاب الحجاجي مراميه الاقناعية . وهو ما نجده متواتراً في معظم مناظراته ومنها مناظرته مع الحسن البصري . إذ تذكر المصادر أن الحسن البصري وفد إلى المدينة المنورة في موسم الحج ، فأتى الأمام الباقر

(عليه السلام) ، وجرت بينهما مناظرة طويلة أفحم فيها الإمام الحسن البصري . قال الحسن البصري للإمام (عليه السلام) : جئت لأسألك عن اشياء من كتاب الله ، فقال له الإمام : ألست فقيه أهل البصرة ؟ قال الحسن : قد يقال ذلك ، فقال له الإمام : هل بالبصرة أحد تأخذ عنه ؟ فقال الحسن : لا ، فقال الإمام : لقد تقلدت عظيماً من الأمر، بلغني عنك أمر فما أدري أكذلك أنت أم يكذب عليك ؟ قال : الحسن : ما هو ؟ قال الإمام (عليه السلام) يزعمون إنك تقول أن الله خلق العباد ففوض إليهم أمورهم ، فسكت الحسن وحار في الجواب ، ثم بادر الإمام قائلاً : أريت من قال له الله في كتابه إنك آمن هل عليه خوف منه بعد هذا القول ؟ قال الحسن : لا ، فقال الإمام : إنّي أعرض عليك آية وأنهي إليك خطاباً ، ولا أحسبك إلاّ وقد فسرته على غير وجهه ، فإن كنت فعلت ذلك فقد هلكت وأهلكت ، فقال الحسن ، ما هو؟ فأجاب الإمام (عليه السلام) أرأيت حيث يقول الله تعالى { وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قُرىً ظاهرةً وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين }[٢٦]، يا حسن بلغني إنك أفتيت الناس بأنها مكة ؟ ثم أردف قائلاً هل يقطع على من حج مكة ؟ وهل يخاف أهل مكة ؟ وهل تذهب أموالهم ؟ فقال الحسن البصري : نعم . ثم مضى (عليه السلام) في تفسير الآية حتى بهت الحسن البصري وحار في الجواب [٢٧] .

لقد دفعت تلك الأسئلة المتتالية التي قامت عليها هذه المناظرة إلى إفحام الحسن البصري وإظهار عجزه عن الإجابة ، وبذلك يكون الاستفهام والأسئلة المتكررة استراتيجية خطابية ضمنت للإمام الباقر(عليه السلام) مسار إقناعي وعمل برهاني حقق تأثيراً وفعلاً في المخاطب ، فيستجيب ويقتنع بوجاهة الآراء التي دعي لاعتناقها من خلال تبصيره بخطأ اعتقاده ، فالسؤال ليس مقصوداً لذاته ، لأن الإمام لا يحتاج في الحقيقة إلى إجابة المخاطب ، وإنما وظف تقنية السؤال لتكون إثباتاً لجواب افتراضي وهو أخذ العلم من منبعه الحقيقي ، فحقق (عليه السلام) من خلال حجاجه هذا استراتيجية حجاجية غير معلن عنها وهي التقويم والتهذيب للآراء الضالة ، من خلال بناء منظومة فكرية رشح مبادئها ودعا المخاطب ومن خلاله الجمهور إلى العمل بها ، عبر ما تحمله تقنية الاستفهام وتكريس بنية السؤال من طاقة حجاجية عالية .

٤- الحجاج بالإستدلال العقلي

ومن بين التقنيات الحجاجية التي وظفها الإمام الباقر(عليه السلام) في نظم خطابه الحجاجي ؛ الإستدلال العقلي والحجج شبه المنطقية ، التي تشترح المقايسة والمناظرة عبر تقديم البراهين المنطقية والضبط الرياضي ، فأنتظمت أدلته انتظاماً استدلالياً صير الأمر الذي أقره بالعقل برهاناً على الصحة يعتقد به الجمهور ويقر بوثوقيته . وهو ما نجده في الكثير من مناظراته ومنها مناظرته مع قتادة بن دعامة السدوسي البصري فقيه

أهل البصرة ، الذي دارت بينه وبين الإمام (عليه السلام) مناظرة رواها صاحب الكافي ذكر فيها ، أن قتادة قدم المدينة المنورة يسئل عن الإمام الباقر (عليه السلام) فلما استدل عليه تقدم نحوه وسئله عن جملة أمور منها قوله " أخبرني عن الجبن ، فتبسم الإمام ، وقال : رجعت مسائلك إلى هذا ، قال : ضلت عني ، فقال الإمام : لا بأس فيه ، فقال قتادة : إنه ربما جعلت فيه أنفخة الميت ، فقال الإمام : ليس بها بأس ، إن الأنفخة ليس لها عروق ولا فيها دم ولا لها عظم ، فهي تخرج من بين رفث ودم ، ثم أردف الإمام ، إنما الأنفخة بمنزلة دجاجة ميتة أخرجت منها بيضة ، فهل تأكل البيضة ؟ قال قتادة : لا ، ولا آمر بأكلها ، فقال الإمام : ولِمَ؟ قال : لأنها من الميتة . فقال له الإمام : فأن حضنت تلك البيضة وخرجت منها دجاجة أتأكلها ؟ قال : قتادة : نعم ، فقال الإمام : فما حرم عليك البيضة وأحل لك الدجاجة ، ثم قال (عليه السلام) كذلك الأنفخة مثل البيضة ، فأشتر من أسواق المسلمين من أيدي المسلمين ولا تسأل عنه إلاّ أن يأتيك من يخبرك عنه [٢٨] .

إن حُجية هذا الإجراء الحجاجي الذي اعتمده الإمام تتمثل بتوسله ببنية منطقية ، تمثلت بافتراض مسألة مشابهة للمسائلة التي طرحها قتادة وسئل الإمام عن جوابه فيها ، ومن خلالها قاس الإمام على مسألة قتادة ، فلما صح أكل البيضة من الدجاجة الميتة صح أكل الجبن لأنها تنطوي على الحكم نفسه. ومن خلال هذه المناظرة أيضاً أقر الإمام (عليه السلام) قاعدة فقهية مفادها ؛ أن الإباحة هي الأصلُ في كل الأشياء مالم يرد دليل على خلاف ذلك .

٥- الحجاج بالنفي

يُعدّ النفي واحداً من التقنيات الحجاجية التي يستعملها المحاج لتوجيه خطابه الوجهه التي يريد ، وهو اسلوب لغوي يراد به نقض فكرة ما أو إنكارها[٢٩]. وكثيراً ما يوظف النفي في الحجاج لما له من دور في إحداث تأثيرات إقناعية على نحو تصاعدي .

وقد وظف الإمام الباقر (عليه السلام) هذه التقنية في بعض مناظراته ومنها المناظرة التي دارت بينه وبين رجل من الخوارج لم تذكر المصادر اسمه ، إذ يذكر الطبرسي إن رجل من الخوارج دخل على الإمام الباقر (عليه السلام) فقال له : يا أبا جعفر أي شيء تعبد ؟ فقال الإمام : الله ، فقال الرجل : وهل رأيته ؟ فأجاب الإمام : بلى، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان ، لا يعرف بالقياس،

ولا يدرك بالحواس ، ولا يشبه بالناس ، موصوف بالآيات ، معروف بالدلالات ، لا يجور في حكمه ، ذلك الله لا إله إلا هو ، فخرج الرجل وهو يقول الله أعلم حيث يجعل رسالته [٣٠] .

لقد كرر الإمام النفي في هذا النص القصير خمس مرات مستعيناً بعاملية النفي بـ(لم) أولاً ثم عطف عليها (لا النافية) أربع مرات ، لينفذ من خلاله إلى عرض وجهات حجاجية متعددة وهي (نفي القياس ، ونفي إدراكه بالحواس ، ونفي التجسيم ، ونفي الظلم عنه) ، ثم عاد ليوجهها وجهة حجاجية واحدة تمثلت في غرس فكرة التوحيد في النفوس (ذلك الله لا إله إلا هو) ، وهو (عليه السلام) بأسلوبه الحجاجي هذا يكون قد حفز المتلقي على الإقتناع وأسقط أي اعتراض يمكن أن يقوم لاحقاً ، فضلاً عن أن تكرار النفي بهذه الحدة يكشف عن تبني الإمام نسقاً قوياً من أنساق الاعتراض والمنع ، قطع شك السائل وأقنعه بالعدول عن رأيه .

الخاتمة

أفضت الدراسة إلى جملة من النتائج يمكن إيجازها بما يأتي :

١ – يُمثل الحجاج واحداً من أهم مباحث التحليل التداولي في الدرس اللغوي الحديث ، وهو يتمحور حول دراسة الاسلوب والطريقة التي يتبناها الباث لتغيير معتقدات المتلقي وإقناعه بالإطروحة التي يرد إيصالها إليه

٢ – توافرت مناظرات الإمام الباقر (عليه السلام) بوصفها خطاباً حجاجياً على أهم أركان الحجاج وهي الصدق والإقناع بعيداً عن الإيهام والمغالطة.

٣ – شكلت الشواهد القرآنية دعامة مركزية في خطابه (عليه السلام) عوّل عليها بوصفها حجة يحتج بها على المخاطب في سبيل الإقناع والتأثير ، وهو ما منح المحاجّ قوة أكتسبها من تلك الحقائق .

٤ – مثل الاستفهام والأسئلة المتكررة استراتيجية خطابية ضمنت للإمام الباقر(عليه السلام) مسار إقناعي وعمل برهاني حقق تأثيراً وفعلاً في المخاطب ، فيستجيب ويقتنع بوجاهة الآراء التي دعي لاعتناقها من خلال تبصيره بخطأ اعتقاده .

الهوامش

١- ينظر : النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع ، محمد العبد : ٤٤

٢- الخطابة ، ارسطو ، تر. عبد الرحمن بدوي : ٢٩.

٣-ينظر: المنهاج في ترتيب الحجاج ، أبو الوليد الباجي ، تح .عبد المجيد تركي : ٧-٨.

٤- ينظر: حجاجية السؤال في خطاب الإمام الحسين ، د. خالد حوير : ١٣٠-١٣١.

٥- ينظر: مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، تح. أ. درويش الجويدي : ٤٢٨-٤٢٩.

٦- ينظر: استراتيجية الخطاب الحجاجي دراسة تداولية في الإرسالية الإشهارية العربية ، د. بلقاسم دفه : ٤٩٦

٧- الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الاسلوبية ، عبد الله صوله : ٢٧ .

٨- ينظر: في البلاغة الجديدة ، عدنان بن ذريل :٢ .

٩- الحجاج في القرآن الكريم : ٣٩ .

١٠- ينظر: معاني ألفاظ الحجاج في القرآن وسياقاتها المختلفة السبع الطوال إنموذجاً، سعيد فاهم : ٢٢ .

١١- ينظر: التداولية والحجاج مداخل ونصوص ، صابر الحباشة : ٧١ .

١٢- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبه وكامل المهندس : ٢١٤ .

١٣- ينظر: البنية الحجاجية في المناظرات الأدبية مناظرة الآمدي بين صاحبي أبي تمام والبحتري أنموذجاً، عبد الله خليفة السويكت :٥٢ .

١٤- الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل بحث في الأشكال والاستراتيجيات ، علي الشبعان : ١٦٧-١٦٨.

١٥- الاعراف /٥٠

١٦- ينظر : الإحتجاج ، الطبرسي ، ج٢/٥١-٥٤ .

١٧- م.ن.: ج٢/ ٤٩

١٨- النساء/١١٤ .

١٩- النساء /٥.

٢٠- المائدة /١٠١ .

٢١- ينظر: الحجاج في مناظرة الحيدة والاعتذار لعبد العزيز الكناني ، ليتمي مراد : ٨٦ .

٢٢- ينظر: الكافي ، محمد بن يعقوب الكليني : ج٨/٣٤٩-٣٥٠ .

٢٣- م. ن. : ج٨/ ٣٥٠ .

٢٤- م. ن. : والصفحة .

٢٥- ينظر: تجليات الحجاج في القرآن الكريم سورة يوسف إنموذجاً، حياة دحمان : ٢٢٦.

٢٦- سبأ / ١٨ .

٢٧- الإحتجاج : ج٢/ ٥٦ .

٢٨- ينظر : الكافي : ٢/٧٦ .

٢٩- ينظر: التعريفات ، الجرجاني : ٢٤٠

٣٠- الاحتجاج :ج٢/ ٤٨ .

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم .

١– الاحتجاج ، أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي ، انتشارات الشريف الرضي ، ايران ، ط١ ، ١٣٨٠.

٢- استراتيجية الخطاب الحجاجي دراسة تداولية في الإرسالية الإشهارية العربية ، د. بلقاسم دفه ، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري ، جامعة بسكرة ، الجزائر ، ع (١٠) ، ٢٠١٤ .

٣– البنية الحجاجية في المناظرات الأدبية مناظرة الآمدي بين صاحبي أبي تمام والبحتري إنموذجاً ، عبد الله خليفة السويكت ، مجلة العلوم الإنسانية والإدارية ، ع (٧) ، يونيو ، ٢٠١٥ .

٤– تجليات الحجاج في القرآن الكريم سورة يوسف إنموذجاً، حياة دحمان ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب واللغات ، جامعة الحاج الخضر– باتنة ، ٢٠١٣ .

٥– التداولية والحجاج مداخل ونصوص ، صابر الحباشة ، صفحات للدراسات والمشر ، دمشق ، سوريا ، ط١ ، ٢٠٠٨ .

٦– التعريفات ، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني ، وضع حواشيه وفهارسه محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠.

٧– الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الاسلوبية ، عبد الله صوله ، دار الفارابي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١١ .

٨– الحجاج في مناظرة الحيدة والاعتذار لعبد العزيز الكناني ، ليتمي مراد ، رسالة ماجستير ، كلية اللغات والآداب ، جامعة مولود معمري ،٢٠١٢ .

٩– الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل بحث في الأشكال والاستراتيجيات ، علي الشبعان ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٠ .

١٠– حجاجية السؤال في خطاب الإمام الحسين ، د. خالد حوير، الاصلاح الحسيني ع(٨)، س(٢)، ٢٠١٤ .

١١– الخطابة ، ارسطو ، تر. عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات– الكويت ، دار القلم – بيروت ، ١٩٧٩ .

١٢– في البلاغة الجديدة ، عدنان بن ذريل ، دمشق ، ٢٠٠٤ .

١٣– الكافي ، الأصول والفروع والفروع والروضة ، محمد بن يعقوب الكليني ، تصحيح أبو الحسن الشعراني ، المكتبة الإسلامية ، طهران ، ط٢ ، ١٣٨٦.

١٤– معاني ألفاظ الحجاج في القرآن وسياقاتها المختلفة السبع الطوال إنموذجاً، سعيد فاهم ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة مولود معمري ،٢٠١١ .

١٥– معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبه وكامل المهندس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٩ .

١٦– مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، تح. أ. درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠١٣ .

١٧– المنهاج في ترتيب الحجاج ، أبو الوليد الباجي ، تح .عبد المجيد تركي، دار المغرب الإسلامي ، المغرب ، ط٢ ، ١٩٨٧ .

١٨– النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع ، محمد العبد، مجلة فصول ، الهيئية المصرية المصرية العامة للكتاب ، مصر ، ٢٠٠٢، ع(٦٠) .